ملاحظات عابرة :

١ — الحاجة والأمانة ... ...
٢ — التبرعات الشعبية ... ...
٣ — مصرى كريم ... ...
٤ — وسائل الإرشاد فى الريف... ... ...
٥ — الدقة فى تصميم المشروعات ... ...

(١)

كنت أقرأ فى كتاب "مذكراتى فى نصف قرن" للمرحوم أحمد شفيق باشا فاستوقف نظرى حديثه عن أمانة السويسريين، وقد استشهد بعدة حوادث منها أنه ترك مظلته سهوا ليركب القطار مسرعا ، فلما كشف ضياعها أعلن فى إحدى الصحف عنها فردت إليه وكان أحدهم قد وجدها فسلمها للسلطات ، ومنها أن صبيا فى محل تجار عثر فى صوان تركه أصحابه للإصلاح قطعة من الماس فردها إلى أصحاب الصوان ... إلى آخر الحكايات التى تدل على أن الأمانة خلق شائع هناك .

ورجعت إلى وصفه للحالة الاجتماعية والاقتصادية فى سويسرا فعرفت أن " الكناس " هناك يتقاضى أجرا يقرب من العشرين جنيها فى الشهر ، وهو أصغر دخل فى هذه البلاد الصغيرة السعيدة .

ولم يعز على أن أرجع بتلك الأمانة إلى أصولها . وهى التربية الصالحة والثقافة العقلية والتهذيب النفسى والرقى الاجتماعى ... ومن وراء هذه العوامل جميعا ، عامل أهم منها جميعا ، ذلك هو الغنى ...

فالغنى هو الذى يعصم نفوس السويسريين من التدنى إلى السرقة أو التكالب على اللقى . والشبع هو الذى يمدهم بهذا الخلق الفاضل ، والمستوى المادى الرفيع الذى يعيشون فيه ، هو الذى يمكنهم من السمو النفسى والتهذيب الخلقى والعقلى .

ولقد رجعت بذاكرتى إلى ما يتهم به بعض المصريين المساكين من قلة الأمانة ، فتوالت على خيالى تلك الصور اليائسة المحتاجة ، وهى التى لا ترعى الأمانة ، ولا تتورع فى إخفائها ، فوجدت أن الحاجة هى التى تدفع بهؤلاء إلى هذا الخلق المرذول ، وأن الأمانة تقوم على الشبع أول ما تقوم .

ولو أن هذه الجماهير فى مصر محرومة من التهذيب والتعليم ، فإنها مظلومة فى اتهامها بقلة الأمانة ، فحوادث رد الأمانات الضائعة فى مصر ليست قليلة ، وحوادث العمال الصغار ، والسعاة والفراشون والخدم الذين يعثرون بأثمن الأشياء فيردونها ليست بالحوادث النادرة ولا القليلة .

وإنى لأعتقد أن المصرى هو أشد أهل الأرض استعدادا للفضائل الاجتماعية ، وأنه مع الظروف التى تحيط به ، لا تزال هذه الفضائل عميقة فى نفسه ، وأن الحاجة هى وحدها التى تخرجه عن فضائله وتعلمه جميع الرذائل التى نشكو منها على الإطلاق .

وفتروا لهذا الشعب ما يحتاج إليه ثم انظروا بعد ذلك فى أخلاقه ، وسترونه أفضل الشعوب وأقلها جرائم ومخالفات ... إنه شعب عريق ، ومظم الجرائم الفاشية فيه مصدرها الجوع ، والبقية من هذه الجرائم مرجعها إلى العناصر الدخيلة على العنصر المصرى الصميم ، من هذه الشعوب التى استعمرت مصر على ممر القرون !

(٥٢)

" أنشأ اللورد نفيلد شركة خيرية رأس مالها عشرة ملايين جنيه للتوسع فى الأبحاث الطبية ، وترقية المصالح الطبية والصحية ، والبحث التجارى والصناعى ، والعناية بالأشخاص الطاعنين فى السن وراحتهم " .

هذا الخبر الصغير فى حجمه ، الكبير فى معناه ، هو كل الفارق بيننا وبين الشعوب المتحضرة ، بين أغنيائنا وأغنياء تلك الشعوب ، بين نظرتهم هناك للواجب الذى يفرضه عليهم ثراؤهم ، ونظرتهم هنا للتاع الذى يتيحه لهم ثراؤهم . وهذا الفارق يلخص جميع الفوارق بيننا وبينهم .

عشرة ملايين من الجنيهات ترصد هناك لمثل هذه الأغراض فى مرة من المرات . وملىم واحد لا يرصد لمثل هذه الأعمال ، ومع ذلك يشكون هناك من " التناهى فى الغنى والتناهى فى الفقر " كما يقول مستر إيدن ، ويعدون العدة لتعديل هذه الأحوال حتى لا يوجد عندهم " صنف الأغنياء المتعطلين ، حسب تعبير مستر تشرشل .

والمسألة ليست مسألة غنى وفقر ، إنما هى مسألة شعور اجتماعى بالواجب على القادرين نحو العاجزين ، مسألة ضريبة اختيارية يفرضها القادرون على أنفسهم لأنهم لا يستطيعون أن يصموا آذانهم عن سماع نداء الواجب ، ولا أن يعموا أعينهم عن النظر إلى حاجات شعبهم .

وأغنياء أوربا وأمريكا يضربون الأمثال فى كل يوم على تبرعات ضخمة من هذا القبيل ، ومنهم "كارنجى" الذى تبرع بثمانية وتسعين مليونا من مائة مليون من الجنيهات ، ثم استثمر هذين المليونين حتى وصلا إلى خمسة ملايين فتبرع بها كذلك بعد وفاته لأعمال البر .

وما من شك فى أن أغنياءنا جميعا سينظرون إلى مثل هذا الرجل نظرة العقلاء إلى المجنون الذى يدفعه جنونه الى التبرع بهذه الملايين ، ذلك أنهم ينظرون الى الدنيا من زاوية واحدة هى زاوية المصلحة الشخصية الصغيرة .

وليس أدل على تخاذلنا فى هذا المضمار من أن مشروع أسبوع البر حينما وصل رقم التبرعات به إلى ثمانية وتسعين ألفا من الجنيهات هللنا وكبرنا ، وأن مشروع تحسين الصحة القروية حينما ظفر بسبعة عشر ألفا من الجنيهات عددناه ناجحا ، وأن يوم المستشفيات وصل إلى نحو أربعين ألف جنيه فحمدنا الله .

وهذه الألوف التى اجتمعت لهذه المشروعات جميعا كان يمكن أن يتبرع بها مصرى واحد فلا تضير ثروته ولا تؤثر فى ميزانيته ، فلدينا عدد من أصحاب الملايين وعدد من أصحاب مئات الألوف . ولكنهم يعيشون لأنفسهم فلا يشعرون بالواجب الاجتماعى المفروض عليهم .

ولدينا اليوم مشروع من مشروعات الموسم ، مشروع مكافحة التشرد ، فى حاجة ماسة إلى التبرعات الشعبية السخية ، والأموال مكدسة فى خزائن أثرياء الحرب ، فلعلنا نرى الأريحية الاجتماعية والإنسانية تدفع بهم إلى التبرع بشىء يرفع رءوسنا أمام الشعوب المتحضرة التى تنجب مستر كارنجى واللورد نفيلد وأمثالهما من المحسنين النبلاء .

(٣)

وقبل أن ننسى يجب أن نذكر مصريا كريما فى القرن العشرين ذلك هو "سيد جلال" . لقد تبرع هذا الرجل فى كل مناسبة من المناسبات بمبلغ يعد كبيرا جدا بالقياس إلى ثروته ، تبرع لمكافحة الحفاء ، وليوم المستشفيات ، ولمطاعم الشعب ... وفى مرة كتب أحد أصحاب الملايين المصريين مقالا حارا يدعو فيه إلى تيسير الحياة على الفقراء ! فما كان من "سيد جلال" إلا أن ترجم هذا المقال إلى لغة " الشيكات " فتبرع بخمسمائة جنيه ، ولم يتبرع كاتب المقال إلا بالورق والمداد !

وأخيرا يسبق " سيد جلال " بمناسبة مشروع تحويل الدين المصرى إلى نموذج من الوطنية الكريمة لا يخطر لأحد أثريائنا على بال ، بل ربما عدوه جنونا لا يقل عن جنون "كارنجى" السابق الذكر .

لقد ارسل "سيد جلال" إلى وزير المالية شيكا بألف جنيه ، وقال : إن هذا المبلغ ثمن شراء عشرة من سندات الدين الجديد ، وذلك لإحراقها مساهمة منى فى تخفيف عبء الدين عن خزانة الدولة ، وإننى اعتقد أن المساهمة فى مشروع تحويل الدين العام لاتكون بشراء سندات القرض ، فإن ذلك عمل رابح يستحق صانعه التهنئة على توفيقه فى استغلال ماله على وجه حسن مضمون ، وإنما تكون المساهمة فى تخفيف عبء الدين بالاشتراك فى تسديده ، وكم تمنيت لو كنت قادرا على أن أساهم بمبلغ أكبر من هذا المبلغ المتواضع ، ولعلى بهذا المثل الصغير أفتح الباب أمام أغنيائنا وأثريائنا لكى يساهموا بعشرات الألوف ومئاتها ، فان الفرد لا يعد ثريا إذا كانت دولته مدينة" .

وكل تعليق على هـذا العمل يعد لغوا ، فإنه ليبدو أن هذا الرجل من طينة أخرى غير طينة الأثرياء المصريين ، فهو يحسن الظن بهم لأنه يقيسهم إلى نفسـه ، ويتنظر منهم أن يقلدوه بأداء بعض ما عليهم للأمة فيتبرعون كما تبرع بعشرات الألوف ومئاتها ، ثم يحسن الظن بهم فيعتقد أنهم يحسون إحساسه الوطنى العالى "بأن الفرد لا يعد ثريا إذا كانت دولته مدينة" !

أيها الرجل الكريم ، ليت لنـا من مثلك عشرة فقط ، إذن لرفعنا رءوسنا أمام العـالم المتحضر ونحن مطمئنون !

(٤)

يتصدى لإصلاح الريف المصرى فى بعض الأحيان جمـاعة ممن لا يعرفون شيئا عن الريف ولا يتصورون وسائل الحياة فيه .

وهم يجلسون على مكاتبهم المريحة فى القاهرة ثم "يتفننون" فى اقتراح وسائل الإصلاح ومن بين هذه الوسائل التى يختارونها وسيلة الارشاد الاجتماعى أو الصحى أو الزراعى .

فمنهم من يقترح توجيه هذه الإرشادات الغالية عن طريق الراديو ، فيذهب المحاضرون الاجتماعيون والصحيون والزراعيون إلى محطة الإذاعة ، ومن هناك يرسلون أصواتهم بالمحاضرات القيمة المنمقة بعد أن يتعبوا فى تحبيرها ويدربوا أنفسهم على إلقائها ، ثم يخرجون مستريحى الضمائر لأنهـم أدوا الواجب المفروض عليهم للريف ، وأبلغوا نصـائحهم وإرشاداتهم لسكان الريف !

وكل هذا جميل ، لولا شيء واحد بسيط ... وهو أن أهل الريف لم يسمعوا حرفا واحدا مما قيل لأنهم لا يملكون لسوء الحظ أجهزة استقبال !!!

ولكم ضحكت وأنا أقلب برامج الإذاعة فأرى فيها حديثا صحيا لمندوب وزارة الصحة عن النظافة فى الريف ، أو حديثا زراعيا لمندوب وزارة الزراعة عن أحسن الطرق لزراعة الذرة الغويجة ، أو حديثا اجتماعيا عن العادات الضارة فى الريف ، أو حديثا لفلان أو اعلان عن الشؤون الريفية ...

إن هؤلاء لا يسمعون أحدا إلا سكان المدن الذين هم ليسوا فى حاجة للحديث عن الريف والذين لا يعرفون شيئا عن هذا الريف المجهول ، أما الذين توجه إليهم الإذاعات فهم فى صمت مطبق لا تصل اليهم هذه الأصوات ، لأن الأثير لسوء الحظ لا ينقل الأصوات مسموعة إلا لأجهزة الاستقبال ، وأهل الريف لا يملكون من هـذه الأجهزة إلا آذانهم التى وهبها لهم الله !

ويبدو لبعض المرشدين من مختلف الهيئات أن ترسل بارشاداتها ونصائحها لا عن طريق المذياع ولكن عن طريق المنشورات المكتوبة . وهؤلاء أكثر واقعية من أولئك الخياليين ولكنهم ينسون أن أكثر من خمسة وتسعين فى المائة من الريفيين هم من الأميين الذين لا يقرءون ولا يفهمون ما يقرأ عليهم بلغة المرشدين .

أيها المصلحون الاجتماعيون الغرباء عن الريف ... إن وسائلكم الخيالية لا تجدى ، فان شئتم ارشاد أهل الريف فتعالوا إليهم وأقيموا بينهم ، وتعرفوا عيوبهم وأمراضهم ، وخاطبوهم بلغتهم وطرائقهم ، وكونوا قدوة حية تسعى بينهم . وهذه هى الوسيلة الوحيدة لإرشاد أهل الريف ، إلى أن يفتح الله عليهم فتزول أميتهم ، ويقتنون أجهزة الإذاعة ، ويعرفون الحروف المكتوبة ، وحينئذ خاطبوهم كما تشاءون . أيها المرشدون الخياليون !

(٥)

كنت أراجع بعض الأبواب فى مشروع الضمان الاجتماعى المقترح فى تقرير السير وليم بيفردج . فلفتت نظرى إحدى فقراته التى يتحدث فيها عن تخصيص مرتبات للأطفال فى يوم مولدهم ، وكان قد اقترح فى فقرة سابقة أن يكون مرتب الطفل الأول سبعة شلنات فى الأسبوع وأن يتناقص هذا المعدل بحسب زيادة الأطفال معللا هذا التناقص كما يأتى :

"يمكن القول أنه مهما يقدر الخبراء فان كل ام تعول ستة أطفال تعرف أن هؤلاء الأطفال لا يكلفون ست مرات مثل ما يكلفه الطفل الواحد من طعام وكساء ووقود ، وأنه إذا احتاج الطفل لسبعة شلنات ، على أساس أسعار ١٩٣٨ (أو ٩ شلنات بأسعار ما بعد الحرب المؤقتة) لسد هذه الحاجات ، فان ٤٢ شلنا لعائلة تعول ٦ أطفال (أو ٥٤ شلنا بأسعار ما بعد الحرب)

تبدو أكثر من اللازم. والحق أنه ليس من السهل أن يقدر الإنسان فى التقديرات السابقة متى يمكن تبرير إجراء إنقاص محسوس فى التكاليف عن كل رأس لعدد من الأطفال . هذا ويخصص من السبعة الشلنات وهو متوسط ما قبل الحرب ١١/٥ شلنات للأكل طبقا لغذاء شخص عادى . وقد يقل التبذير فى العائلة الكبيرة ، أما مبلغ الـ ١١/٥ شلنا فانه لا يتسع لأى تبذير . وثلاثة بنسات الوقود هى عبارة عن سدس الفرق المسجل بين عائلة من شخصين وعائلة من ثمانية أشخاص . ويمكن تحقيق اقتصاد ضئيل فى العشرة البنسات المخصصة للملبس فى العائلات الكبيرة بانتقال الملابس من شخص لآخر . ومتوسط السبعة الشلنات قابل للانتقاد إذا لم يحسب فيه حساب الإيجار ... ... الخ »

لفتت نظرى هذه الدقة فى تصميم المشروع ، التى تلتفت إلى توفير الفرق بين معدل الوقود لفردين والوقود لثانية ، وإلى ملاحظة أن ملابس الابن الأكبر تصلح للابن الأصغر فتقل النفقات فى العائلة الكبيرة ، وإلى أن قيمة الإيجار لا تتضاعف بنسبة تضاعف أفراد العائلة . وعمل حساب لذلك كله فى معدل زيادة المرتبات بزيادة الأولاد .

فهذه الدقة دليل على أن واضع المشروع لم يلتفت للنظريات وحدها ، ولكنه التزم أدق المشاهدات الواقعة فى الحياة اليومية ، ووضع تقريراته الحسابية على اساس هذه المشاهدات الواقعية .

وهذا مثل من أمثلة الدقة فى تصميم المشروعات نحن فى حاجة إليه كلما هممنا بمشروع إصلاحى ، فلا يجوز أن نعتمد على التخمينات والفروض ، بل يجب أن نعتمد على الإحصاءات والوقائع . وهذا المثل نموذج بارع للدقة المطلوبة فى المشروعات .